الفصل الرابع

أسلوب التمني وبلاغته وجمالياته

تقديم :

سعى البلاغيون منذ القديم إلى إدراك الدلالة الحقيقية للأصل اللغوي لأسلوب التمني؛ وفي الوقت نفسه تَبين لهم أن هذا الأسلوب قد خرج إلى معانٍ أخرى تتضح من السياق على قلة الأدوات المستخدمة فيه[94].

وقد انحاز هؤلاء البلاغيون إلى جعل التمني أحد أساليب الإنشاء الطلبي بينما لم يروا في أسلوب الرجاء إنشاءً طلبياً وإنما رأوا فيه إنشاء غير طلبي.....

ولو نظر الباحث بعين فاحصة لأدرك أنهما يؤديان غاية واحدة، فكلاهما يبنى على طلب لا يتحقق إما لاستحالته أو لبعد وقوعه... ولكن الفرق بينهما عند القدماء أن التمني غير قابل للوقوع أياً كان شأنه... بينما الترجي قابل للوقوع، وغايته الإخبار لديهم فهو يدخل في الممكن لا المستحيل[95]. وذلك كله يثبت أن الكلام في هذا الأسلوب يوضع على أقدار المعاني بما يمكن دلالتها في النفس سواء تحققت أم لا ، ولكل شكل صناعته.

وفي ضوء ذلك لابد أن نؤخر الحديث عن أسلوب الرجاء إلى حينه في الإنشاء غير الطلبي... ونقصر الحديث هنا على التمني الطلبي...

obeikandl.com

القسم الأول: التمني الحقيقي

فـرّق البلاغيـون بـين نـوعين مـن الـتمني؛ تمـنٍّ مسـتحيل، وتمـنٍّ بعيـد الوقـوع، وكلاهما لا يرجى حصوله.... وجعلوا لهما أداة أصلية وهي (ليت):

1 . التمني المستحيل:

هو طلب أمـر مرغوب فيـه أو محجوب لا يرجى حصـوله لكونـه مستحيل الوقوع.ومثاله قوله تعالى: ﴿ياليتني كنْتُ معهم فَأَفُوزَ فَوْزاً عظيماً﴾. (النساء 4/ 73). فـالتمني واقـع للمنـافقين الـذين يتخلفـون عـن المؤمنين؛ فـإذا أصـابهم فضـل عظيم تمنى المنافقون أن يكونوا معهم ليفوزوا أيضاً بما حصلوا عليه... ولكن أنَّى لهم ذلك؟... وعليه قول ساعدة بن جُؤَيَّةِ:

ياليتَ شِعْري، ألا مَنْجى من الهَرَم أَمْ هَلْ على العيش بعد الشيبِ مِنْ

فهـو يتمنـى أن ينجـو مـن الهـرم، وكـبر السـن بمـا فيـه مـن شـيب وضَعف؛ وكيف لـه ذلك.؟...

إنَّه تمنٍّ مستحيل... أما ابـن الرومـي فإنـه يتمنـى أن يمتد ليـل رمضـان حتـى يعـادل شـهراً، علـى حـين يتمنـى أن يمـر النهـار الـذي يكـون فيـه صـائماً مـرَّ السحاب:

فليـتَ الليـلَ فيـه كـان شَـهْراً ومَـــرُّ نهـــاره مَـــرَّ الســـحاب

ولعـل كـثيراً مـن القـوم يتمنـون أمنيتـه المسـتحيلة لأنهـم لا يـدركون فضـل الصيام؛ ومعنى التعبد فيه... أما أبو العتاهية فقد تمنى عودة شبابه الـذي ذهـب ولا سبيل إلى عودته:

ألا ليـتَ الشـبابَ يعـود يومـاً فأُبْلِغَـهُ بمـا فَعَـلَ المشـيبُ

فالبنيـة اللغويـة البلاغيـة تـوحي بتنـاغم مـؤثر بـين الحالـة الشـعورية وطريقـة التمني التي أشعرت المتكلم باستحالة حدوث الفعل فازداد حزناً وألماً، وهـذا يتقاطع مع المذهب الرومانسي.

2 . التمني البعيد الوقوع:

وهو طلب أمر مرغوب فيه أو محبوب لكونه ممكن الحدوث ولكنه بعيد المنال في التحقق، فهو أشبه بالمستحيل؛ كقوله تعالى: ﴿ياليتَ لنا مثلَ ما أُوتي قارون﴾ . (القصص 79/28). فمن أراد الحياة الدنيا رغب في الحصول على مال وفير يعادل مال قارون... فإذا كان قارون قد أوتي من الحظ الكثير فلا يعني أن يتحقق للآخرين وإن لم يكن مستحيلاً... وهذا كله أدعى للتأمل؛ ومحاولة لفت المخاطب إلى ما هي عليه حال المتكلم، في الوقت الذي يتوافق ذلك مع إثارة الذهن على مسائل عدة، ومنه قول مروان بن أبي حَفْصة في رثاء مَعْن بن زائدة:

فليتَ الشامتينَ بهِ فَدَوْهُ ... وليْتَ العُمْرَ مُدَّ لهُ فَطالا

فالشاعر يتمنى لو أن الحساد والمبغضين فَدَوا مَعْن بن زائدة لَمَا مات؛ أو لو أن عمره طال..... ولكن هيهات؛ هيهات!.. فعلى الرغم من أن العمر قد يطول ببعض الناس إلا أنهم طعام للموت؛ ومن ثم تمنى لو كان أعداء مَعْنٍ وعواذله قرباناً له... لكن تمنيه كان بعيد الوقوع ولا يتحقق فقد مات مَعْنٌ...

3 . أدوات تقوم مقام (ليت):

بهذا اتضح لنا أن صيغة التمني الوحيدة في المعنيين السابقين هي (ليت) فهي موضوعة للمعنى الأصلي فيه ما يفيد بأنها علامة لغوية وبلاغية مميزة... وقد يستعمل في معناها أدوات ثلاث أخرى هي (هل، لو، لعل). ولا يتمنى بهذه الأدوات الثلاث إلا في المعنى المقطوع بعدم وقوعه؛ لئلا تُحملَ معانيها في التمني على معانيها الأصلية، مما يبرز الفرق بين الجوهر والعَرَض.

وحين تختص هذه الأدوات بالتمني فإن البلاغيين واللغويين رأوا أن الفعل المضارع إذا وقع في جوابها وجب نصبه... وهي تستخدم مكان (ليت) لأمر بلاغي وجمالي وهي:

1 ـ هل:

تقع (هل) موقع (ليت) وتدل دلالتها الحقيقية كما هي في قوله تعالى: ﴿قالوا: ربنا أَمَتَّنا اثنتين، وأَحْيَيْتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾ (غافر 40/ 11). فالكافرون يتمنون أن يخرجوا من النار خروجاً سريعاً أو بطيئاً بعد أن رأوا قدرة الله، ونتساءل كيف يخرجون منها وقد أشركوا به؟!..[96].

2 ـ لو:

تستعمل هذه الأداة أيضاً مكان (ليت)؛ ولها استعمالان الأول مع الفعل (وَدَّ ـ يود....). والثاني من دونه... وكلاهما في التمني[97]. فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لو تُدْهنُ فيُدهنون﴾ (القلم 9/68). فقد وَدَّ الكاذبون المداهنة... أي تمنوا لو لنت لهم وترفقت بهم، وأن تتركهم على الشرك والكفر وتوافقهم عليهما... ولكن دون أمنيتهم خَرْطَ القتاد... فقد جاء استعمال (لو)، بمعنى التمني غير الحاصل... ولم ينصب الفعل (فيدهنون)، إذ عُدل به إلى طريق الإخبار؛ أي فهم يدهنون. وهناك قراءة أخرى بنصب الفعل (فيدهنوا)[98].

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿لو أن لي بكم قُوَّةً﴾، (هود 11/ 80). فالنبي (لوط) (عليه السلام) لم يكن له قوة كافية لردع قومه عن الفحشاء وخزيه في ضيفه لهذا تمنى أن يُمنح تلك القوة التي يقوى بها عليهم بنفسه؛ فاستعمل (لو) للتمني غير المحقق وبعيد الوقوع[99].

وقبل أن نمضي في الحديث عن الأداة الثالثة ا لتي تقوم مقام(ليت) نؤكد أن الأسلوب البلاغي في التمني يرتبط جمالياً بالأداة البلاغية اللغوية ويتعامل معها بناء على تشكيل جمالي ينساق وفق مستوى التركيب ومن ثم إحساس المتلقي بعلاقات التبادل التركيبي وعناصرها الجمالية.

3 ـ لعل:

تستعمل (لعل) استعمال (ليت) للتمني غير الحاصل كقوله تعالى: ﴿لعلّي

أبلغَ الأسبابَ❖ أَسباب السموات فأطلعَ على إله موسى﴾ . (غافر 40/ 36 . 37).

فقد أمر فرعونُ هامانَ أن يبني له صرحاً مكشوفاً عالياً متمنياً أن يحقق له أمنيته إذا علاه في الوصول إلى ما وصل إليه النبي موسى[100]. وهذا يكون على إنزال (لعل) التي تفيد الترجي، منزلة (ليت) التي تفيد التمني؛ ولابد من نصب فعل (أبلغ). وبهذا يفيد القول رغبة نفسية مغايرة للتركيب وعليه قول الشاعر:

أَسِرْبَ القَطا! هل مَنْ يُعيرُ جناحَه لعَلّي إلى مَن قَدْ هَوِيْتُ أَطِيرُ

فالأسلوب هنا زلزل الصورة الثقافية اللغوية لاستعمال (مَنْ) وربطها بـَ (لعل) في شكل مثير.

هكذا تبين لنا أن التمني أيأ كانت أدواته إنما هو طلب أمر مرغوب فيه أو محبوب لا يرجى حصوله لكونه مستحيلاً، أو لكونه ممكناً بعيد الوقوع لا يتحقق وله أداة أصلية هي (ليت) وأدوات أخرى تقوم مقامها وتحل محلها في المعنى...

ومن هنا يثبت لدينا أن البنية اللغوية ليست بنية محايدة في التعبير والأداء؛ وهي حين تنطلق من الوحدة التركيبية المعنوية الصغرى في (أداة التمني) لا تقتصر عليها فلابد لها من سياق يؤطر معنى التمني، ويقدمه على الوجه المراد منه...

ولَّما رُبط التمني بالاستقبال وربطت الأدوات بالفعل المضارع المنصوب لم يكن هذا ليحصرها بمعانٍ محددة، كالتي أشرنا إليها، فالسياق القائم على وحدة معنوية كبرى قد يوجه معنى التمني إلى اتجاه آخر، وإن ظل السياق مؤطراً بالأداة...

وهذا كله يجعل التركيب في أسلوب التمني أعظم من أن يحتويه أسلوب ذو اتجاه واحد، أو أسلوب مباشر؛ فلابد من أن يتجه إلى أسلوب متنوع يأخذ في أعماق الدلالة... وتصبح روح اللغة هي الهدف والوسيلة... فالأسلوب هنا يتجه إلى

وظيفة عاطفية أعلى في شدتها ودرجتها مما عرفناه من قبل؛ وتبعث من الإيحاءات الفكرية أضعاف ما انطوت عليه في الأسلوب السابق من دون أن نخلط بين الأسلوب ذاته وما يدل عليه، فكل أسلوب يشاكل موقفاً ما؛ ويتآلف معه تبعاً للمقام، أو الحال...

ومن هنا سنتحدث عن المعاني البلاغية البعيدة لأسلوب التمني المجازي.

القسم الثاني: أسلوب التمني المجازي

إن المتكلم المتمني لطلب ما إنما يوظف ألفاظه لغرض من الأغراض قد يكون بعيداً في التأمل كبعد التمني في التحقق والحدوث... ولهذا يهيئ كالشاعر تماماً ((للألفاظ نظاماً ونسقاً وجواً [يسمح] لها بأن تشع أكبر شحنتها من الصور والظلال والإيقاع))[101].

فاللغة في هذا الأسلوب تتجلى عن معانٍ مثيرة حاضرة في الذهن والقلب والنفس ومن ثم متجددة ومتعانقة بالخيال؛ لتنفتح على عالم من الرؤى البعيدة والعجيبة. فمهمة الأسلوب الجمالي المثير نابعة من مهمة اللغة التصويرية البديعة والدالة على إيماءات تقترب من الرمزية... وإن لم تتخلَّ عن الأبعاد الواقعية للغة الأسلوب الحقيقي للتمني... فأسلوب التمني يتصل بأسرار النفس الإنسانية، ويحاول كشف جوهر حركة التغيير في الواقع الاجتماعي بوصفه غاية وهدفاً... ولعل هذا ما يتجلى في كل أسلوب من أساليب التمني المجازي؛ مما يأتي.

1. الترجي:

إذا كان الأمر المرغوب فيه في أسلوب التمني مما يرجى حصوله وليس مستحيلاً؛ كان طلبه ترجياً ويعبر عنه بـ (لعل وعسى....) ومن ذلك قوله تعالى:

obeikandl.com

﴿لعلَّ اللّهَ يُحْدث بعد ذلك أمراً﴾ (الطلاق 65/ 1). فهذا الكلام جزء من آية يأمر فيها اللّه المطلقة ألا تخرج من بيت الزوجية حتى تنقضي العدِّة، فلعل اللّه يغير قلب ذلك الزوج، ويقلب قلبه من البغض إلى المحبة، ومن عدم الرغبة فيها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه فيراجعها... أي أحصوا العدة لعلكم ترغبون وتندمون وتراجعون [102].

ونلحظ أن هذا الأسلوب لم يأتِ على صيغة التمني في المعنى، وإنما جاء على جهة أداة اللغة لوظيفة مباشرة؛ وهي استخدام (لعل) على الأصل في الرجاء الذي يمكن حصوله.. فالأسلوب البلاغي يؤدي وظيفة محددة؛ بينما إذا استخدمت (لعل) في التمني، أو استخدمت (ليت) في موضع (لعل أو عسى) فإن الأمر سيتغير كثيراً. فاللغة في مثل هذا الأسلوب تقوم على نظام غير معياري في إطار العناصر التي تتضافر فيه وفق عملية الانزياح لتؤدي وظيفة جديدة في عملية التشكيل الجمالي.

فأداة التمني (ليت) إذا استعملت في معنى الترجي، وحلَّت محل (لعل) أفادت معنى المبالغة في الحصول على الطلب... وأبرزت الطلب الممكن في صورة المستحيل...

ومن هنا تكمن القدرة على التشكيل الجمالي الخيالي المثير. فلو قلنا: (ليت لي ألف دينار....).لسُقنا الحصول على هذا المبلغ في إطار نسق التمني؛ والتمني لا يتحقق، بينما الحصول على المبلغ المذكور واقع في حيّز إلا مكان... فخرج الكلام عن المألوف لإبراز صورة الممكن في صورة المستحيل؛ وما هو إلا لإبراز المعنى على جهة المبالغة، وهنا تكمن الجمالية الفريدة لأسلوب التمني... وقيل: إذا وقعت (ليت) في معنى (لعل وعسى) كانت للترجي وليس للتمني، لأنها خرجت عن معناها الأصلي.ولكن بعض الشعراء أكثر من استعمال (ليت) في مكان (لعل) للاستحالة فكشف عن جمالية مدهشة ذات إيحاءات متعددة، كما نراه في قول المتنبي:

فليَتَ هَوَى الأَحبَّةِ كان عَدْلاً فحمَّلَ كُلَّ قَلْبٍ ما أطاقا

وقوله أيضاً في معنى بديع وقد حَلَّت به المصائب فلا تزايله:

فيا ليتَ ما بيني وبين أحِبَّتي مِنَ البُعْدِ ما بيني وبين المصائب

وقوله في معنى طريف آخر:

ليت الملوكَ على الأَقْدارِ مُعْطيةٌ فلم يكن لدنِيْءٍ عنده طمعُ

فهو يرجو أن يعطي الملوك الشعراءَ مالاً على قدر فعلهم ونبل أنفسهم فلا يطمع في عطائهم خسيس دنيء، والملوك قادرون على ذلك... ولكنه حين استعمل (ليت) أخرج المعنى بصورة المستحيل، فحقق وظيفة البلاغة والجمال معاً.

2. إبراز المعنى المستحيل في صورة الممكن القريب:

هذا الأسلوب عكس الأسلوب السابق فوظيفة اللغة فيه نمط من الجموح العاطفي والفكري إلى تحقيق مالا يمكن تحقيقه كقول المهلهل الذي تمنّى أن يرجع أخوه كليب حياً ليعرف ويشاهد كيف ثأر له، وقد كان يصفه بأنه لا هم له إلا زيارة النساء؛ لذا يرجو أن يعود من قبره ليرى بأسه وشجاعته، وهيهات:

فلو نُبِشَ المقابرُ عن كُليبٍ فيُخْبِرَ بالذَّنائب: أيُّ زِيْر.

وكذلك قول النابغة في فتاة تمنت أن يكون الحمام الطائر في السماء لها، وهي لا تملك إلا واحدة منه؛ فأخرج المعنى المستحيل في صورة الممكن، على اعتبار فقر تلك الفتاة:

أَلا ليتما هَذَا الحمامُ لنَا إلى حَمَامتنا أو نِصْفَه فقدِ

أمّا صريع الغواني (مسلم بن الوليد) فقد تمنى عودة أيام الصبا، ويتحسر

على ذهابها فيقول:

واهــاً لأَيَّــامِ الصِّــبا وزمانِــهِ لــو كــان أَسْــعَفَ بالمُقــام قلــيلا

فالأسلوب البلاغي للتمني في ذلك كله سعى إلى إبراز المعنى المستحيل في صورة قابلة للوقوع؛ والتّصرف اللغوي أفسح المجال لتقبّل ذلك حتى في المثال الأخير... فالتركيب في ظاهره (لو كان أسعف...)، يدخل (كان) و(أَسْعف) في الاستحالة، بعد أن كان فعل (أسعف) يدل على الإمكان... بيد أن التركيب المتكامل يتولد منه دلالة جديدة تؤكد إبراز المعنى المستحيل في صورة الممكن، لأن فعلي (أسعف) و(كان) مرتبطان بالإيجاد والحدوث على ارتباط أداة الشرط (لو) بالامتناع.

3. العناية بالمعنى القابل للحصول والتشوق إليه:

ينحرف أسلوب التمني إلى طلب أمر مرغوب فيه يمكن تحققه في الواقع لغير المتكلم. ولمّا فات المتكلم ذلك الطلب تشوق إليه وحرص على إدراكه... وهذا الأسلوب يستند إلى تطابق دلالته مع منطق الأشياء في الواقع المعيش لا الواقع النفسي الحقيقي للمتكلم؛ ما وَلَّد شحنة عاطفية عالية عنده كحال الكافرين في قوله تعالى: ﴿فهل لنا من شُفَعاء فيشفعوا لنا﴾ (الأعراف 7/ 53). فالتركيب بني على أساس التمني لا على أصل حقيقة الاستفهام؛ فَعدم الاستشفاع امتنع للكفرة المكذبين بالرسل وبلقاء الله؛ فتولد منه التمني المناسب للمقام؛ وهو إبراز العناية في صورة الممكن التي تتحقق بشفاعة الله لهم والعفو عنهم وعن شفعائهم... أما أن يشفع لهم من غزوهم في الحياة الدنيا فضرب من المحال... ومثل ذلك الأسلوب نجده في قول الشاعر:

ولَّــى الشــبابُ حميــدةً أَيَّامُــهُ لــو كــان ذلــك يُشْــتَرَى أو يَرْجِــعُ

فالعلاقة التركيبية تقوم على التضاد البلاغي بين (ولَّى) و(يرجع) وما بينهما يتشوف فيه الشاعر إلى عهد الصبا الذي عاش فيه أيامه الجميلة...حيث

برزت عنايته بذلك حين استخدم (لو) في التمني، وهو يتشوق فيه إلى الشباب الذي يتمتع به غيره.. وقد يكون إبراز المعنى الممكن وقوعه والتشوق إليه ممثلاً بما يجري مع المتكلم الذي يتمنى أن يلقى أحبته لما رأى جماعة من الطير في السماء كقول ابن المعتز:

مَرَّتْ بنا سَحَرَاً طيرٌ، فقلْتُ لها: طوباكِ؛ يا ليتني وايَّاكِ، طوباكِ

فاللذة الجمالية لهذا الأسلوب البلاغي تبرز في التأليف الفني التركيبي القائم على المشاكلة والتضاد. أي إن ميدان الجمال ليس فيما بني عليه التركيب من ألفاظ واضحة؛ وإنما فيما حواه ذلك التعبير من خلق صورة ممتعة غير متوقعة في كمال المعنى والتشوق إلى حدوثه.

4. الإشعار بعزة المتمنَّى وندرته:

إن من أهداف التمني تحويل الانتباه من شيء إلى شيء إثارة للدهشة وحثاً للفكر على التأمل.... ولعل المعرفة التي يقدمها أسلوب التمني في هذا الاتجاه يكمن في إشعار المخاطب بعزة المتمنى وندرته... ويصبح الأسلوب بهذا التحول ذا جمالية خاصة لا نجدها في الأساليب السابقة. وعليه قوله تعالى: ﴿فلو أنَّ لنا كرَّةً فنكونَ من المؤمنين﴾ . (الشعراء 26 /102). فلما تقطعت الأسباب بالكافرين وكانوا قد اتبعوا كبراءهم فظلموا أنفسهم فكانوا حطباً لجهنم... تمنَّوا لو عادوا إلى الحياة الدنيا واتبعوا الرسل والمؤمنين. فأعمالهم انقلبت حسرات عليهم بينما أعمال المؤمنين كانت نعيماً وفوزاً بالجنة[103].

وبهذا برز المتمنى بصورة عزيزة وعظيمة، لا يستطيع الكفرة إدراكه... وقد أجاد المتنبي في استعمال هذا الأسلوب حين رثى أخت سيف الدولة في قوله:

فَليتَ طالعةَ الشَّمْسَين غائبةٌ وليْتَ غائبةَ الشمسين لم تَغِبِ

فالمتنبي حرص على استعمال صفة الشمس في حال المغيب والإشراق؛

obeikandl.com

واعتمد على مفهوم التضاد لإبراز المعنى من جهة، وبيان عزته وندرته.... فالتمني اعتمد على أسلوب الاختلاف النادر في المطابقة... فالشمس تطلع وتغيب، ولكنه تمنى ألا تطلع، أما أخت سيف الدولة فقد غابت إلى الأبد.... وتمنى ألا تغيب. وبهذا أنتج الأسلوب البلاغي معنى العزة في المتَمنَّى وإعلاء مكانته الاجتماعية ومنزلته في نفس المتكلم؛ وعليه قول المتنبي أيضاً في مدح سيف الدولة:

ليتَ المدائحَ تَسْتَوِي مناقِبَهُ فما كُلَيْبٌ وأَهْلُ الأَعْصُرِ الأُولِ؟

فعزة ممدوحه ومكانته قد دفعت بالمتنبي إلى إيحاء بعيد خافٍ عن النفس وغير متوقع ومكانته قد دفعت بالمتنبي إلى إيحاء بعيد خافٍ عن النفس وغير متوقع لندرته... حين تمنى أن تستوي المدائح صفاته، لأنه فاق كليباً في المنزلة والمناقب وسبق فيها أي إنسان من أي عصر. وبهذا نقل صورة المخاطب إلى صيرورة الوعي الجمالي المثير... وذلك كله ينطبق على قول المتنبي أيضاً:

ألا ليْتَ شِعْرِي هَلْ أَقولُ قصيدةً فلا أَشتكي فيها ولا أَتعتَّبُ

فقد أشعرنا المتنبي بعزة تلك القصيدة التي لا يشتكي فيها من شيء.... حين استعمل كلمة (ليت) فهي نادرة الوجود.... ومنه قولنا: (لو تأتيني فأحدثك وتحدثني)؛ فقد أنزلنا مجيء أحدٍ ما منزلة العزيز النادر. وهذا كله يعلي من تقدير التشكيل الجمالي المقدّر لقيمة الخيال الخلاّق في تحديد نوعية الأسلوب البلاغي... إذ كل أسلوب لا يماثل أخاه في مكوناته الجمالية، ولو انبثق كل منهما من مشكاة خيال واحد... ولا يعني هذا أن الأسلوب البلاغي يهدف إلى تبديل العلامة اللغوية إلى معنى؛ وإنما يهدف إلى تشكيل جمالي يعالج ماهية البنية ذاتها في إطار وظيفتها النفسية والفكرية و....

5. التندّم والتحسُّر:

إن رصد الأثر النحْوي الذي سبق به عبدُ القاهر الجرجاني الغربيين لا

يتوقف عند عملية الانزياح اللغوية بغرض خلق دلالات جديدة؛ وإنما يخلق في الوقت نفسه دلائل من داخل البنية التركيبية المؤلفة.... وإذا كان علم الدلالة اليوم يعنى ببنية الجملة وتفسيرها من الجهة الدلالية فإن عبد القاهر الجرجاني قد سبقهم إلى ذلك حين قال: ((ليس إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله)) [104]. ولكن عملية التحول في الأثر النحوي لا تتحدد في البنى الأساسية ولابد أن تراعي الهدف من البنية المركبة[105]. فالتمني على سبيل المثال قد يكون موضوعاً لغاية التندم والتحسر وفق مقتضى السياق التركيبي والنصي كما في قوله تعالى يتحدث فيه عن رجل ظن أن جنته (حديقته) لن تبيد أبداً؛ فلما قضى الله أمره فيها وأماتها؛ وذهب بمائها أصبح ذلك الرجل ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ على ما أنفق وهي خَاوِيةٌ على عُروشِها ويقول: يا ليتني لم أُشركْ بربيّ أحداً﴾، (الكهف 42/20). ((وتقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن...))، ثم جاءت كلمة ((ياليتني تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أُتي من جهة شركه وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه))[106].

ومثل ذلك نراه في قول الكافر الظالم لنفسه الذي ندم على ما فرّط في ذات الله حين عصاه؛ ولم يتخذ الرسول خليلاً له بينما اتخذ إبليس ولياً له وخليلاً فقال تعالى واصفاً إياه: ﴿ويوم يَعَضُّ الظالم على يديه؛ يقول: يا ليتني اتخذْتُ مع الرسول سبيلاً❖ يا ويلتَى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ (الفرقان 25/ 27 ـ 28). فقد ((تمنى لو صحب الرسول وسلك معه طريقاً واحداً وهو طريق الحق...))، ولكنه ندم ولات ساعة مندم، وبدت الحسرة عليه في قوله: ﴿ياويلتى، ليتني﴾ [107]. وهو ـ من ثم ـ يتمنى أن يكون ترباً في قوله تعالى: ﴿يوم ينظر المرءُ ما قدَّمتْ يداه، ويقول الكافر: يا ليتني كنت تُراباً﴾ (النبأ 78/ 40). فإبليس نفسه الذي كفر بأمر الله وأَغوى الإنسان الذي خلقه الله من تراب... تمنَّى أن يكون مثله تراباً بعد أن أدرك الحقيقة؛ وطالما احتقر الإنسان المخلوق من التراب وفضَّل نفسه عليه لأنه خُلق من نار[108]. فأسلوب التمني بهذه

الأشكال الشفافة تنبئ بوظائف عديدة بلاغية وجمالية ودلالية...

ومن ثم أدركنا أن الدرس البلاغي في أساليب التمني إنما هو درس أسلوبي جمالي فني ولغوي؛ وقد سبق به العربُ العديد من آراء الأسلوبية واللسانية الحديثة على نحو ما؛ وإن جاءت هذه بمصطلحات متطورة ومتنوعة لا تشبه ما أشرنا إليه عند العرب. وكل ذلك مشروط بوعي الأسلوب وإيحاءاته الدلالية؛ فاللغة البلاغية تملك من الطاقات ما يجعلها مدعاة للتأمل بصورة دائمة. ومن ثمة فإن أي شكل بلاغي في أي أسلوب يصبح ممثلاً لرؤية متجددة تنهض بتفسير موقف المتلقي، بوصفه معبراً عن مشاعره وأفكاره وتطلعاته؛ أي إن البنية اللغوية البلاغية – بما عليه ألفاظها من علاقات سياقية هي التي تحمل خصائص ذلك، فضلاً عن حملها لمقومات الصورة في مختلف علاقاتها الظاهرة والخفية...

وبناء على هذا كله تتنزل البلاغة الأسلوبية في أنماط الإنشاء ضمن الخطاب النقدي، ومعرفة أسراره.

ولعل ما نقوله في أسلوب النداء يكمل ما بدأنا به؛ فضلاً عن أن الممارسة التحليلية لأساليب النداء قادرة على إظهار لطائف بلاغية وأسلوبية كثيرة لا تنحصر فيما قدَّمناه أو سنقدمه. فالممارسة الإبداعية ـ على مدى التاريخ ـ أكثر رحابة من أن تقف عند أحدٍ ما مهما كانت عبقريته النقدية أو البلاغية، ولكل عصر قضاياه ورؤاه ومبدعوه.

obeikandl.com